الفصل الأول

الدين والتربية فى المجتمع

لقد ارتضى مجتمعنا الإسلام ديناً له • والإسلام مفهوم شامل للحياة بجميع نظمها وأبعادها ، ولكن البعض يحاول أن يحصره أو يحاصره فى نطاق ضيق جداً ، معتبراً إيّاه مجرد صلة بين الإنسان وخالقه ، مما يفرض عليه بعض الفرائض الدينية التى يؤديها لربه •

وهذه المحاولة مشوبة بعدم الفهم الواضح للإسلام ، كما أنها تتسم بضيق الأفق ، ومعاداة الفكر الإسلامى • ومن ثم فإن مناقشة الدين ــ كنظام اجتماعى متفاعل مع النظم الأخرى فى داخل المجتمع ــ تعتبر إحدى المداخل الرئيسية فى فهم استراتيجية الإسلام ، بل أىّ دين فى المجتمع • كما أن مناقشة ما يتسم به الإسلام ــ من شمول وتكامل ، وقيادة للنظم الاجتماعية الأخرى ، وصبغها بصبغته ــ يوضح أنه نظام حاكم فى المجتمع يصيغ فكره ، ويحدد مساراته المختلفة ، ويحدد القيم لجميع النظم الاجتماعية الأخرى ، ومنها النظام التربوى • وهو ما يعنينا فى هذا البحث •

ولذلك فإن هذا الفصل يعنى بمناقشة تلك العلاقة المتبادلة بين الإسلام كنظام اجتماعى والنظم الاجتماعية الأخرى عامة ، وبين الإسلام والنظام التربوى كنظام اجتماعى بوجه خاص .

الدين ظاهرة ونظام اجتماعى :

الدين ظاهرة اجتماعية ظهرت فى كل المجتمعات ؛ ونظام اجتماعى فيه جميع خصائص النظم الاجتماعية • فهو ظاهرة اجتماعية وُجدت بوجود المجتمع البشرى ، ووُجدت فى كل المجتمعات ، ومازالت ، وستظل تحقق وظيفة هامة بالنسبة للمجتمع ، إذ يجيب عن أسئلة تطرحها الفطرة الإنسانية وتصوغها العقول البشرية • ومن الطبيعى أن تكون هذه الأسئلة بسيطة فى

صياغتها حينما كان المجتمع بسيطاً ، وأن تكون معقدة الصياغة حينما أصبح المجتمع معقداً متشابكاً فى نظمه وأوضاعه الاجتماعية • وفى كل حالة فإن الدين ــ أى دين ــ يكون إجابة نفسية وعقلية لمطالب الحياة البشرية • كما يتصدى لها مفكرون ونابهون وفلاسفة لحبك الصياغة الخاصة بهذه الأسئلة ، وتوضيح مطالب الحياة البشرية منها ، ويتولون أيضاً محاولات الإجابة عنها ، وقد يصيبون فى الإجابة عنها ، وقد يخطئون ، وقد تتقبل الجماعة البشرية هذه الإجابة إذا كانت متمشية مع حياتهم ، وقد تفرض عليهم من جماعة فيها ، خاصة إذا كانت ذات قوة وسلطان ، وقد يرفض بعض القوم هذه الإجابة ، وقد تحار البشرية فى أمرها إلى أن تنزل من السماء رسالة تتولى الإفصاح والإجابة عن الأسئلة التى يَحارُ فيها البشر ، فيؤمن بها من يؤمن ، ويكفر بها من يكفر •

والدين ــ كنظام اجتماعى ، ضمن مجموعة النظم الاجتماعية فى المجتمع ــ توجد فيه جميع الخصائص التى تتصف بها النظم الاجتماعية ؛ فله وظيفة كما أسلفنا ، ويؤمن به كثير من الناس ، وينتظم به كثير من أمورهم الحياتية والأخلاقية ؛ فهو يحدد العلاقات بين الخالق ــ سبحانه وتعــالى ــ والمخلوقات من البشر • وينظم العلاقات البشرية فى جميع أوضاعها ، ونظمها الاقتصادية والسياسية ، والأخلاقية ، والاجتماعية بوجه عام •

وللدين قواعده وأصوله وتشريعاته الأساسية التى تنتظم فى منظومة منسقة متسلسلة ، تشكل عقداً متكاملا فى شكله ومضمونه • وتشكل فى واقع الأمر نظاماً متسقاً مترابطاً من الأفكار والقيم ، والمفاهيم الخاصة بالكون والحياة والإنسان • وهذا النظام كلى شامل ، يعالج مجموعة من الأفكار الجزئية ، والقضايا الفرعية التى تكون نتاج الخبرات البشرية ، والمواجهات الإنسانية لقضايا ومشكلات ومطالب الحياة البشرية المتصلة ، والمستمرة •

وله طقوسه وممارساته ، التى عادة ما تكون تجسيداً لهذه المنظومة

الفكرية المترابطة • وعادة ما تسير هذه الطقوس ، وتلك الممارسات الدينية وفقاً للقيم التى تنتظمها هذه المنظومة الفكرية ، بحيث لا تتناقض الطقوس ولا الممارسات الدينية مع ذلك الأساس النظري الذى يكوّن إطار هذا الدين أو ذاك •• كما أن الحياة البشرية فى المجتمع ــ أى مجتمع ، بشكل مباشر أو غير مباشر ــ تناقش قضاياها وتوجّه فى ظل دين من الأديان . وإذا بعدت عن أن يكون الدين ــ سماوياً كان أو وضعياً ــ موجهاً لأمور حياتها ؛ فإن عليها أن تبحث عن شىء آخر يحل محل هذا الدين ؛ وإلا تفسخ المجتمع ، وشاعت فيه فوضى واضطراب يهددان كيانه • وسرعان ما يبحث أهل الحكمة فيه عن إطار فكرى يرتضيه المجتمع ليوجه حياته ، ويضبط حركة إيقاعه •

وللدين مؤسساته التى تُمارَس فيها طقوسه ، وتتجسد أفكاره فيها ومن خلالها • وعادة ما تحتاج هذه المؤسسات إلى مجموعة من الأبنية ، والأجهزة والأدوات التى تمثل الجانب المادى فى أى نظام اجتماعى •

والمعروف أن كل دين من الأديان تنتظمه مجموعة من التشريعات والعبادات والإجابات التى تساير روحه ونظامه الكلى العام • وهى التى تحقق أهدافه ومثله العليا ووظيفته فى الحياة الإنسانية ، والحياة الاجتماعية العامة •

التفاعل بين الدين والنظم الاجتماعية الأخرى :

والدين نظام اجتماعى يؤثر فى النظم الاجتماعية الأخرى • بل إنه يؤثر فى منظوماتها الفكرية ، وفى إرساء دعائمها وإطارها العام وقيمها التفصيلية • فكل قضية من القضايا التى تثيرها جميع النظم الأخرى نجد فى الدين وجهة نظر فيها ، وإن لم توجد بشكل واضح أو معروف فإن أهل هذا الدين أو ذلك يمكنهم أن يفلسفوا القضية المثارة فى ضوئها ، أو أن يجدوا لها حلاً فكرياً بالقياس المنطقى على نصوصه •

كما أن الدين يؤثر فى الحياة الاجتماعية كلها ونظمها المختلفة • فكل

دين تتحدد مفاهيمه ونثرى منظوماته الفكرية بقدر ثراء وغنى الحيـــاة الاجتماعية التى يعيشها المجتمع ، أو المجتمعات البشرية ، أو التى سوف تعيشها الحياة الاجتماعية ، لأن أى دين هو أولا وأخيراً قد صيغ أو نزل من أجل الحياة الاجتماعية فى الحاضر والمستقبل ، وبقدر مقدرة الدين على مواجهة مطالب الحياة الاجتماعية وقضاياها ومستقبلها ــ يكون عمقه واتساعه وشموله ونظرته المستقبلية • وبغير ذلك يكون ديناً اجتماعياً مرهوناً بفترة زمانية محددة يصبح بعدها فى عداد التاريخ ، أو على وجه التحديد فى عداد تاريخ الأديان •

وميزة الدين الإسلامى أنه دين الحاضر والمستقبل • فلم ينزل لفترة زمانية محددة ، وإنما نزل لجميع فترات التاريخ الحاضرة فى زمان نزوله ، والمستقبلة حتى آخر الزمان ، بل لجميع المجتمعات على مختلف أشكالها ، ومختلف مراحل تطورها . فإطار هذا الدين ونظرياته الكلية الشاملة أعدت لتستوعب المجتمعات ، ومراحل تطورها إلى ماشاء الله • وفى نفس الوقت سمحت هذه الأطر بالاجتهادات البشرية فى ظلها وفقا لمقتضيات الظروف والأوضاع الاجتماعية • وهو دين المستقبل والحاضر ، والمطلق والنسبى •

وإذا كان الدين ظاهرة اجتماعية ، وضرورة إنسانية ، ومطلباً نفسياً ، واستجابة وإجابة لمشكلات فكرية لدى البشر ــ فلماذا شُغلت البشرية عنه حتى كادت تتناساه ، أو تنساه ؟ هذا سؤال جدير بالدراسة والبحث ، خاصة أن كثيراً من بلاد العالم تسلك سلوكاً فردياً واجتماعياً مبتعدة عنه • وإن كان كثير من المبادىء والمثل التى ترفعها شعارات لكثير من أنظمتها مستمدة منه بطريق مباشر أو غير مباشر ، وبالوعى واللاوعى ، عبر قرون طويلة من الزمان •

لعلنا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال إذا ألقينا نظرة سريعة على إنسان هذا العصر • إن إنسان هذا العصر قد طحنته الحياة الدنيا بإيقاعها السريع المتلاحق الصاخب عالى الضجيج ، وهو إيقاع لا يستطيع الإنسان ملاحقة سرعته ولا صخبه ، كما أنه لا يستطيع استيعاب الحياة وأهدافها وغاياتها الحقيقية فى ظل ضجيجه المزعج •

إن الإنسان فى هذا العصر تطحنه الأهداف المادية فى هذه الحياة ووسائل تحقيقها ، وهو مغمض عينيه عن الغايات فى هذه الحياة ، وفى هذا إغفال لجانب هام فى حياته ، وهو فى إغفاله لهذا الجانب إنما يقترب من الحيوانات التى تسعى لاستمرارها الحيوى فقط ، ولا تسعى لما يسعى إليه الإنسان • وهذا المسار الذى يقطعه الإنسان فى غياب هذا الجانب الروحى والمعنوى فى الإنسان يجعله يفسر الوجود تفسيراً مادياً بحتاً ، كما يجعله يبتعد عن الفهم المتريث لحقيقة هذا الوجود •

وإذا كان الدين ظاهرة اجتماعية وجدت بوجود الإنسان على الأرض ، واستمرت عبر العصور التاريخية المختلفة ، فسيبقى إلى ماشاء الله له أن يبقى • وأن الإنسان قد عبد منذ وجوده على ظهر الأرض إلهاً أو آلهة ، تراوحت بين عبادة الأنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، والنار والأصنام والماء ، بل الأبطال ، فإن ذلك يدل على أن الدين مطلب إنسانى يشبع هذا الميل الفطرى فى الإنسان للتدين • ويفسر سر وجود النظام الدينى كنظام اجتماعى فى المجتمعات البشرية • كما يفسر تلك العلاقات الوظائفية المتبادلة بين الدين كنظام اجتماعى وبقية النظم الاجتماعية الأخرى •

ولما كانت دراستنا التى بين أيدينا تختص بعلاقة الدين بالتربية فإننا سنحاول تحليلها .

تحليل علاقة الدين بالتربية فى المجتمع :

إذا كانت هناك تأثيرات متبادلة بين النظم الاجتماعية أوضحنا أبعادها ومساراتها ، وإذا كان الدين نظاماً اجتماعيا ، والتربية نظاماً اجتماعياً ؛ فإنه يمكننا أن ننتزع هذين النظامين الاجتماعيين من مجموعة النظم الاجتماعية الأخرى لنرى مسار تلك العلاقات والمؤثرات بشكل أكثر تفصيلا وعمقاً ، حتى نتبين موقع الدين من التربية فى المجتمعات المختلفة •

ولعلنا نتساءل عن الوصلات العصبية والعلاقات العضوية التى تربط التربية بالدين ! •

إننا نجدها فى صلتين أساسيتين هما : اجتماعية التربية ، وخلقية التربية ، فلنناقش هاتين الصلتين .

اجتماعية التربية :

اجتماعية التربية تتأكد من عديد من الصلات التى تربط التربية بالمجتمع . أهمها : التنشئة الاجتماعية ، وعلاقة التربية العضوية بثقافة المجتمع ، بجميع محتوياتها .

فالتنشئة الاجتماعية بالنسبة للصغار يتم من خلال الكبار وما يمثلونه من قيم وعادات وتقاليد ونظم اجتماعية ولغة ، وهى مكونات وعناصر ثقافية . كما أن التربية المدرسية وغير المدرسية فى سن المدرسة وما بعدها تصوغ نفسها من محتوى الثقافة التى يحتضنها المجتمع ، فالثقافة هى الوعاء الذى تغترف منه التربية محتواها وأهدافها ووسائلها وأساليبها ونظمها المختلفة . والدين وإن كان عنصراً من عناصر ثقافة المجتمع ونظاماً من نظمه فإنه عنصر حاكم فيها . وهو نظام سيد ؛ فهو الذى يعطيها صبغتها ولونها ؛ وهو الذى يشكل قيمتها ، وينمط عاداتها وتقاليدها ويهدى سلوكها .

« صِبغة الله ، ومَن أحسنُ من الله صِبغة » .

ومن ذلك نرى أن هذه الخاصية — وهى اجتماعية التربية — تمثل الاتصال العضوى ، والارتباط العصبى بين التربية والدين . وبمعنى أدق بين التربية والنظام القيمى فى المجتمع . وهذا النظام القيمى فى مجتمع ما يتشكل إلى حد كبير ويصطبغ بصبغة الدين فيه .

وإذا كانت هذه العلاقة واضحة بين التربية وأى دين وبين التربية وأية عقيدة إلهية أو غير إلهية ، فهى أكثر وضـــوحاً بالنسبة للدين الإســـلامى .

فالدين الإسلامى دين الشمول والتكامل لكل أمور الحياة الدنيا والآخرة ، ومن ثَمَّ فإن المنظومة القيمية التى يحتويها هذا الدين بين جنباته

هى منظومة واسعة وعريضة وعميقة : واسعة ، حيث تسع جميع المنظومات القيمية والتنظيمية لجميع النظم الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية ، والأسرية ، والاجتماعية العامة ، والقانونية ، والحربية ... إلخ وعريضة ، لأن النسيج الذى تنسجه هذه المنظومة القيمية تغطى المجتمع كله • وعميقة ، حيث تنتظم عناصر النظم الاجتماعية كلها من وظيفة للنظام ، ومن إدارته وتنظيمه ، ومن عناصره البشرية والمادية ، ومن معاييره وقواعده الخلقية ••

وهذه المنظومة القيمية ــ على اتساعها ، وعرضها ، وعمقها ــ إنما تحددها الأطر ، والتشريعات ، والقوانين ، والمعايير الإسلامية الخاصة بكل النظم الاجتماعية ، ومنها النظام التربوى ، بحيث تتناسق ، وتتناغم ، وتتكامل فى ظل إطار إسلامى شامل عام هو الدين الإسلامى بكل ما يعبر عنه من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وسُنة شريفة ، وممارسات مارسها رسول هذا الدين •

خلقية التربية :

أما خلقية التربية فهى بنت هذه العلاقة ــ علاقة التربية بالثقافة ــ وعلاقتها بالمجتمع ، فالتربية حينما تضع أهدافها ومناهجها وأساليبها وطرقها فإنها تفعل ذلك وفقاً لمعايير وقيم معينة • وهذه المعايير والقيم تتعين وفقاً للأطر المراجعية التى تحددها ثقافة المجتمع • وهذه الأطر الثقافية فى حد ذاتها يعينها الإطار الفكرى والتراثى لهذا المجتمع ، فإذا كان هذا الإطار ديناً سماوياً فإن عنصر الثقافة كلها تتشكل بفعل هذا الدين السماوى ، وبفعل مناقشته للأمور والقضايا المختلفة التى تحتويها هذه الثقافة • وإذا كان الإطار ديناً وضعياً أو فلسفة بشرية كان الوضع كذلك •

ولذلك فإن الدين ــ كنظام اجتماعى ، وكعنصر من عناصر ثقافة أى مجتمع ــ يصبغ النظم الاجتماعية الأخرى بفعل خاصية التأثير الاجتماعى التى تتصف بها النظم الاجتماعية المختلفة • وبفعل أنه يكوّن مجموعة القيم والمعايير التى تتّخذ كموازين يحكم بها على سلوك الجماعة وأخلاقها ، وتتحدد بها قيم النظم الاجتماعية المختلفة وتشريعاتها •

وإذا كانت التربية تلتزم بأخلاق المجتمع ، وإذا كان الدين هو الذى يشكل أخلاق المجتمع ، فإن التربية تلتزم بما يلتزم به الدين من مفاهيم ، ومعانى ، ومضامين أخلاقية ، وقيمية .

وهذه الخاصية أوضح ما تكون فى الإسلام . فالقيم الأخلاقية فيه لا تُجارَى . وهى قيم سامقة رفيعة ، وفى نفس الوقت قيم واقعية ، صاغها الخالق الأعظم للبشر الذين خلقهم ومن ثمَّ فهو أعرف بهم « ألا يعلم مَنْ خَلق وهو اللطيف الخبير ؟ »[1] . والتربية الإسلامية فى ظل الإسلام تختار أهدافها ومناهجها ووسائلها وفقاً لإطار مرجعى أساسى فى الإسلام ألا وهو الإطار القيمى .

---

(١) سورة الملك ــ آية (١٤) .